رحلة إلى زنجبار وكابوس الانقلاب

زاهر بن حارث المحروقي

كانت الهجرة إلى زنجبار حلماً يراود العمانيين دائماً، لدرجة أنّ المحظوظ هو الذي استطاع أن يصل ويعيش فيها، لأنها كانت مصدر رزق ورغد في العيش، وما تفردت به من نقاء الهواء وسعة الخضرة والهدوء، مع وجود حكومة عمانية تدير الأمور هناك. ولم تكن زنجبار هي حلم العمانيين فقط؛ بل إنها جذبت الكثير من الأعراق العربية وغيرها، مثل الحضارم والشيرازيين والهنود والأوروبيين والأفارقة والقمريين، واستمرت في جذبها للناس حتى يناير عام ١٩٦٤ – أي قبل ٥٣ سنة من الآن –، عندما وقع انقلاب أطاح بالحكم العماني لتلك المنطقة.

على مدى ٥٠ عاماً، ظهرت كتبٌ كثيرة تتحدث عن زنجبار، كيف كانت قبل الانقلاب وبعده. ومن الكتب التي ظهرت مؤخراً، كتاب «رحلة إلى زنجبار وكابوس الانقلاب»، لمؤلفه محمد بن سلطان البوسعيدي، الصادر عن مؤسسة بيت الغشام. يتميّز الكتاب بأنه يحكي سيرة ذاتية لطفل عماني سافر مع أهله من «الفيقين» بولاية منح إلى زنجبار مع أهله، فإذا الواقعة تقع، ويتحول حال هذا الطفل وأهله وكلِّ العمانيين إلى كابوس يقضُّ مضاجعهم. ومن هنا استطاع المؤلف محمد بن سلطان أن يقدِّم للقارئ وصفاً تفصيلياً وتوثيقياً لما جرى في ذلك اليوم الكئيب، كما استطاع أن يوّثق للرحلات البحرية التي كانت تتم ما بين عُمان وزنجبار، – وهو توثيقٌ رغم أنه تنقصه الكثير من المعلومات– إذ لجأ المؤلف إلى الاختصار الشديد لوصف تلك الرحلة – إلا أنه يبقى محاولة جيدة، لأنّ الجيل العماني الذي عاش تلك التجارب والجيل الذي سافر من صور إلى الصين وغيرها من البلدان قد انقرض ولم يبق منه إلا القليل، لذا فيُعتبر توثيق محمد بن سلطان لتلك الرحلة محاولة جادة تفتح الباب أمام الآخرين للبحث في تلك الرحلات وكيف كانت تتم، فقد وصف خط سير الرحلة من ولاية منح عبر قوافل الجِمال إلى مسقط ومنها إلى زنجبار عبر السفن، وكان بصحبة والده ووالدته واثنين من إخوانه.

الجزء المهم في كتاب «رحلة إلى زنجبار وكابوس الانقلاب» هو الجزء الثاني الذي يتناول فيه المؤلف ما حدث في ذلك اليوم، وما شاهده وعايشه هو بنفسه من أحداث، ويذكر أنّ إرهاصات الانقلاب بدأت بعد وفاة السيد خليفة بن حارب البوسعيدي وتولّي ابنه عبد الله السلطة، والذي حكم لمدة ٣ سنوات فقط من عام ١٩٦٠ وحتى عام ١٩٦٣، حيث توفي بعدها إثر إصابته بمرض السكري الذي أدى إلى بتر إحدى قدميه ووفاته؛ فقد كانت زنجبار تعاني في تلك الفترة من أزمة سياسية مدبرة، لأنّ بريطانيا أحست قبل خروجها منها أنّ العرب لا يحبذون وجودهم في تلك المنطقة ولا يرغبون باستعمارهم وتدخلاتهم، فقاموا بتحريض الجنس الأفريقي لتكوين حزب لهم سمّوه بالحزب «الأفرو شيرازي»، وقامَ العرب بدورهم بتأسيس حزب آخر هو «الحزب الوطني» بزعامة علي بن محسن البرواني.

يقول محمد بن سلطان إنّ بريطانيا نجحت بالفعل في تنفيذ خططها بتحريض الأفارقة وزرع فتيل الثورة لقلب حكومة العمانيين هناك؛ فازدادت المناوشات بين الطرفين، وأصبحت تشكّل تهديداً وخطراً على الحياة، ونُزع القناع وانكشفت خبايا النفوس، واستُبدل الاحترامُ الذي كانوا يكنونه للعمانيين بالامتعاض والتذمر، لعلمهم أنّ هناك سنداً قوياً يسندهم ويدعم نشاطهم ويشجِّع ما يقومون به؛ فكانت مقاطعة العمانيين وعدم التعامل معهم والشراء من محلاتهم؛ لدرجة أن اضطر العمانيون إلى إقفال دكاكينهم بسبب الخسائر، لكنّ الأمر تطوّر ووصل إلى القتل وإحراق البيوت بمن فيها في مختلف الأرياف، وكثرت مجالس العزاء حتى جاء يوم ١٢ يناير ١٩٦٤، والذي حدث فيه الانقلاب رسمياً وانتهى كلُّ شيء.

يحكي المؤلف قصة هذا اليوم بأنه ذهب وأبوه لبيت أحد جيرانهم من العمانيين للاستماع إلى الراديو لمعرفة ما يجري، فكانت الإذاعة تبث الأناشيد والأغاني العسكرية، فقرروا العودة إلى البيت، إلا أنّ القلق كان مستبداً بالعائلة، فخرجوا ثانية، فإذا أحد العمانيين يقول لهم إنّ الرجل الذي ذهبوا للاستماع إلى الراديو عنده قد قتل هو وزوجته وأولاده فور خروجهم من عنده. وقد ذهبوا ثانية عند أحد العمانيين لمتابعة الأحداث، «فتجمّع الكلّ في مكان واحد، وأخذنا نستمع إلى إذاعة زنجبار، وإذا بعلي بن محسن البرواني يتحدث ويقول: إنّ الحكومة السابقة قد سقطت، والآن يتولى الحزب الأفروشيرازي الحكومة، والرجاء

من جميع العمانيين تسليم أنفسهم.» ويصف إعلان علي محسن بأنه كان كارثة وكان وقعه أليماً، حيث علمنا أنّ علي محسن البرواني تم القبض عليه وسيلقى مصيراً سيئاً من قبل الأفروشيرازيين، ثم سمعنا بعد ذلك عبيد كارومي رئيس الحكومة الجديدة يتحدث طالباً من العمانيين تسليم أنفسهم.

في كتابه هذا، يتناول محمد بن سلطان البوسعيدي، شخصية علي بن محسن البرواني، ويرى أنّ كلّ مصائب العرب جاءت بسببه؛ ففي الصفحة ٥٣ من كتابه يقول عنه «إنه عُرف في ذلك الوقت بأنه كان سبباً في دمار العمانيين في زنجبار»، ويذكر حكاية رددها كثيراً العمانيون – وإن لم يثبتها أحدٌ حتى الآن، إلا أنها عند الكثيرين من المسلّمات — وهي أنّ بارجة ضخمة أتت إلى ميناء زنجبار وعلى متنها أنور السادات مبعوثاً من قبل الرئيس جمال عبد الناصر، ليتحدث مع علي بن محسن حول تزويد زنجبار بسلاح وطائرات هيليكوبتر وسيارات ودبابات، لأنّ الجارة تنجانيكا تنوي غزو زنجبار، إلا أنّ رد علي بن محسن كان «إنّ البلاد آمنة»، بل إنّ هناك من أضاف للرواية فصلاً آخر هو أنّ علي بن محسن طلب من مصر أن تستقدم أم كلثوم وفرقة رضا للإظهار بأنّ الأمور مستقرة. وفي الواقع فإنّ فرقة رضا، شاركت في احتفالات استقلال زنجبار ضمن وفد مصري رفيع برئاسة أنور السادات. وقد أشار إلى ذلك ناصر الريامي في كتابه «زنجبار– شخصيات وأحداث». (وفي حديث مع محمد بن سلطان، أخبرته أنّ شخصية علي بن محسن البرواني، كانت شخصية فريدة جداً، وكان صاحب رؤية مستقبلية، فكان رده إنّ ما ذكره في كتابه ليس كلامه فقط، ففي السجون التي سُجنوا فيها وكانوا أكثر من ١٢ ألف شخص من سجن إلى سجن، كان هناك شبه إجماع على دور علي بن محسن في الانقلاب. وعموماً لقد ذكر محمد بن سلطان ما عنده، وتبقى شخصية علي محسن شخصية عامة، يجب أن تطرح للنقاش).

لقد انتقل محمد بن سلطان البوسعيدي هو وأهله من سجن إلى آخر، وعانى من المرض والجوع ما عاناه كلُّ الأبرياء من العمانيين، وكان أشد ما آلمهم هو خبر مقتل ابن عمه ومن معه من العمانيين من قبل الجيش، لأنهم دافعوا عن أنفسهم بالسلاح، حيث كانوا متحصنين في بيت أحد المساكرة في منطقة «شيماني». ويقول محمد إنّ والده عندما سمع بهذا الخبر بكى بكاءً شديداً، لأنه كان يحبه جدا، وكان شاباً في الأربعين من عمره.

بعد الانقلاب بأيام، عادت عائلة محمد بن سلطان البوسعيدي إلى عُمان عبر الصليب الأحمر الدولي في باخرة باكستانية كبيرة، بعد أن تمت مصادرة كلِّ أملاكهم، وكانت تلك الرحلة هي آخر الرحلات إلى تلك الجزيرة.

لقد نجح محمد بن سلطان البوسعيدي في كتابه هذا في وصف تجربة فريدة لعائلة تسافر من الوطن الأم إلى الفرع الثاني من الوطن، فإذا بالكارثة تقع. وكتابُ «رحلة إلى زنجبار وكابوس الانقلاب» يدخل ضمن الكتب التاريخية والتوثيقية وكذلك إلى كتب أدب الرحلات، وقد يكون أبرز ما يميِّزه، أنه يحكي قصة طفل في مقتبل العمر يحكي ما رآه وشاهده وما عاناه في ذلك الانقلاب، ويصف حالة السجون التي سُجن فيها العمانيون، كما أنّ في الكتاب لمحات إنسانية رائعة تصف حياة الناس في زنجبار ومأكولاتهم وعاداتهم، وكذلك بساطة السلطان جمشيد بن عبد الله الذي أصبح آخر سلطان لزنجبار، حيث ذكر محمد بن سلطان كيف أنّ السيد جمشيد رآه هو وأباه في الشارع ينتظرون النقل، فوقف لهم وأقلهم بسيارته، وغير ذلك من المواقف الإنسانية التي أعطت روحاً للكتاب رغم الذكريات المأساوية.